منهج علم الكلام

الشيخ حسن بدران

الكلمات المفتاحيّة: الاستدلال، علم الكلام، البرهان، الاستقراء، التمثيل، الجدل، الفلسفة.

إنّ طرق الاستدلال الكلاميّ متنوّعة، لا تنحصر من حيث الصورة أو المادّة في طريق خاصّ معيّن. وتتنوّع هذه الطرق بتنوّع الغاية من هذا العلم، ففيما كانت الغاية منه هي معرفة الله معرفةً يقينيّةً بالتحقيق، أو كانت الغاية منه إثبات موضوعات سائر العلوم، فيجب أن يكون طريق الاستدلال ممّا يفيد اليقين. وذلك بأن يكون طريق الاستدلال هو الاستدلال المباشر، أو القياس، أو الاستقراء المعلّل – من حيث الصورة –، والبرهان فحسب – من حيث المادة –.

وأمّا إذا كانت الغاية من الكلام إرشاد المسترشدين وإلزام المعاندين، أو كانت هي الذبّ عن الأصول والعقائد الدينيّة، فيجوز استعمال جميع طرق الاستدلال. وبعبارة ثانية، يجوز التوسّل بكلّ ما ينفع في تحصيل الغرض وتأدية المطلوب من طرق الاستدلال، فيُلجأ إلى الطرق التي تتناسب مع أوضاع المخاطبين الفكريّة والروحيّة وظروف الزمان والمكان التي تحيط بهم، فقد لا ينفع استعمال البرهان في بعض الموارد التي يكون الجدل والخطابة أكثر نفعًا وجدوائيَّة فيها. وكذلك لا ينفع استعمال القياس في بعض الموارد التي يحسن عندها في الوصول إلى المطلوب استعمال التمثيل أو الاستقراء مثلًا.

ويتّضح بما تقدّم أنّ طرق الاستدلال الكلاميّة لا تنحصر في الجدل، لعدم جواز استعمال الجدل في مورد معرفة الله تحقيقًا أو في مورد إثبات موضوعات سائر العلوم الدينيّة، ولعدم انحصار طرق الاستدلال بالجدل في مورد إرشاد المسترشدين وإلزام المعاندين، أو في مورد الذبّ عن الأصول والعقائد الدينيّة .

وعليه، فالمنهج المتّبع عندهم يشمل كل من:

- الوحي
- الاستدلال المباشر
- البرهان العقليّ اليقينيّ
- الجدل
- القياس
- الاستقراء
- الخطابة

- التمثيل

منهج الدعوة في القرآن الكريم

والقرآن الكريم يحثّ على اتّخاذ هذه الطرق الاستدلاليّة المختلفة في مجال الدعوة إلى التوحيد، كما في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[1].

ومن هنا، يعتبر القرآن أنّ الحكمة والموعظة والمجادلة هي من أنحاء الدعوة وطرقها، وهي تنطبق على ما اصطلحوا عليه في فن الميزان بالبرهان والخطابة والجدل. فالحكمة – بحسب الآية – مأذون فيها بجميع أفرادها، والموعظة منقسمة إلى حسنة وغير حسنة، والمأذون فيها منهما هي الموعظة الحسنة، ثمّ الحسنة إلى التي هي أحسن وغيرها، والمأذون فيها منها التي هي أحسن[2].

علاقة علم الكلام بالفلسفة

من حيث الموضوع، الفلسفة والكلام متمايزان. إذ موضوع الكلام هو العقائد الإيمانيّة الراجعة إلى معرفة الله سبحانه، بصفاته الذاتيّة والفعليّة، وموضوع الفلسفة الأولى هو الموجود بما هو موجود.

أمّا من حيث الغاية، فالفلسفة الإلهيّة تهدف إلى أمرين: الأوّل، معرفة أحكام الوجود وخوّاصه الكلّيّة لتمييز الحقائق عن غيرها من الأمور الوهميّة والخياليّة. والثاني، معرفة العلل غير الطبيعيّة والعلة الأولى.

وعلى هذا، فالفلسفة والكلام يلتقيان في معرفة الله تعالى، بينما يستعين الكلام بالفلسفة في التعرّف على أحكام الوجود الكلّيّة.

أمّا من حيث المنهج، فهناك نقطتا افتراق بين العلمين: أنّ الدلائل الفلسفيّة برهانيّة ويقينيّة، وليست بالضرورة كذلك في علم الكلام. وأنّ الفيلسوف يطرح أبحاثه العقليّة تحرّيًا للحقيقة دون أن يتّخذ موقفًا قبليًّا، بخلاف المتكلّم الذي يستخدم الأبحاث العقليّة لإثبات العقائد الدينيّة، وبهدف التوفيق بين العقل والشرع.

---

[1] سورة النحل، الآية 125.

[2] محمّد حسين الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن** (قم: مؤسّسة مطبوعاتي إسماعيليان، الطبعة 2، 1973 م)، الجزء 12، الصفحات 371-374.

يقول المحقّق اللاهيجي: "إنّ الحكمة في الإسلام ليست في الحقيقة إلّا كأساس الشريعة وأصلها، وتوهّم حصول الاختلاف بين الشريعة والفلسفة إنّما هو ناجم من الجهل وعدم المعرفة بحقيقة هذا وذاك"[3].

[3] علي الربّاني الكلبايكاني، **ما هو علم الكلام** (مؤسسة بوستان كتاب، الطبعة 3، 1429هـ)، الصفحة 64.